العدد (1473) السنة السادسة - الأحد (5) نيسان 2009 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

ولد عشية الحرب والآن يبلغ السادسة..

صبي عراقي اسمه "حرب"

ترجمة: نجاح الجبيلي

شعرت إيمان كاظم بتقلصات في بطنها الساعة الثانية ليلاً في ٢٠ آذار عام ٢٠٠٣. كانت شوارع بغداد مهجورة والناس ينكمشون مرتعدين في بيوتهم بانتظار الغزو الأمريكي المهدد. لكن الطفل لم يكن يرد الانتظار.

قام جار لهم بنقل إيمان وزوجها بسيارته إلى المستشفى من منطقتهم الواقعة جنوب بغداد.

لا شيء يبعث على الاطمئنان في تلك الليلة. سمعت إيمان الصرخة الأولى للطفل قبل الفجر وحملته بين ذراعيها. ثم سمعا الانفجارات الأولى التي أعلنت وصول القوات الأمريكية.

سمته "حرب" فكان اسمه الكامل "حرب زيد".

وراح الجيران يطلقون النكات بان تسمية الطفل باسم حرب ستجلب الدمار. كانت قلقة عليه ، الطفل بإسم صعب ومستقبل مجهول.

تقول في بيتها الصغير في بغداد الجديدة: "كنت خائفة. لم أعرف كيف ستجري حياتنا. وكان المستقبل مجهولاً لنا".

كانت السنوات الست لـ"حرب" مفزعة بسبب الحرب– التفجيرات في الأسواق، الاحتلال الأجنبي، العبوات الناسفة، التصفيات الطائفية، والتهجير الجماعي والنظام السياسي الجديد والمهشم أحياناً.

في عيد ميلاده والذكرى السنوية للحرب على العراق يبقى شك إيمان حول المستقبل نفسه قبل ست سنوات. لا أحد يعرف مستقبل الأمة أو الحرب.

غير أن التوتر قد خف قليلاً. اعتادت العائلة على إطلاق لقب "طقاوي" على الصبي ذي العينين السوداوين والسلوك الخجول وهو لقب لا يحمل معنى مرهقاً. في الواقع أنه لا يحمل أي معنى إطلاقا. فقد أطلق عليه أخوه الأكبر هذا اللقب في احد الأيام فالتصق به.

ويكفي أن الأمور التي تذكر بالحرب هي مباشرة خارج بابهم: الجدران الكونكريتية العالية التي تقسم وتحتوي المناطق لحماية السكان، البنايات المثقبة جدرانها بالرصاص ومركبات "الهمفي" للجيشين العراقي والأمريكي.

يرتدي "حرب" قميص تي شيرت مرسوم عليه الرجل العنكبوت وهو يحب كرة القدم. لكن الأخطار خارج بيت أبويه أحياناً تجبره على البقاء في البيت أمام شاشة الكومبيوتر.

لعبته المفضلة هي "غراند ثفت أو فايس ستي". فهو يختطف السيارات ويسرق الدراجات البخارية ويطلق النار على المارة ويدهس المتفرجين في الشارع. الدم الرقمي يسيل من الأجساد.

أغلب الصبيان الذين يبلغون السادسة لا يسمح لهم بلعب "غراند ثفت أوتو" فهي في منتهى الرسومية (الغرافيك). لكن "حرب" رأى الدم الحقيقي.

في عام ٢٠٠٦ ذهب مع أخيه ليأكلوا الكباب حين حدث انفجار في السوق. الناس الذين فروا من المخبز المجاور احترقوا أحياء. قال أنه لم يكن خائفاً.

هرع أبوه إلى السوق حين سمع بالانفجار حافي القدمين وفزعاً. رأى أحد الجيران الصبيين وسحبهما بعيداً عن المذبحة.

روى "حرب" القصة لوالده محمد عبد بدر دون وجل.

في السنة نفسها جلس "حرب" في السيارة بينما كان أبوه يسوقها عبر الشوارع المظلمة لمنطقته في إحدى الليالي. توقفت سيارة أمامهم وسحب رجال إحدى الميليشيات رجلاً من صندوق السيارة وأطلقوا عليه النار. وتركوه على الشارع ثم ابتعدوا. وكانت هذه واحدة من آلاف حوادث القتل من قبل ميليشيات الشوارع في ذروة العنف الطائفي. وكانت الجثة واحدة من العديد من الجثث الملقاة على الشوارع مثل النفاية عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٧. و أحياناً يعثر على ٥٠ جثة في اليوم.

خرج بدر من السيارة ليرى إن كان الشخص المقتول من أبناء المنطقة. بعض الصبيان حذروه من الاقتراب من الجثة. وحين التفت لم يجد ابنه.

نظر "حرب" إلى وجه الرجل.

سأله والده وهو يهرع إلى الصبي الصغير: "ماذا تفعل؟"

قال: "انظر بابا ،أنه رجل مسكين".

إنه يرى الأشياء بطريقة لا يجب أن يرى بها أي طفل آخر.

يحاول والداه أن يحمياه لكنه يسأل كثيراً.

تقول أمه إيمان بينما هي تخبز الخبز في بيتها: "إذا ما رأى رجلاً يحمل بندقية فهو يسأل هل الرجل سيقوم بالقتل. لا أعرف الآن كيف سيؤثر فيه الأمر".

كانت تنظر إلى ابنها وتحمل ابنتها، التي لم تبلغ الثانية من عمرها حتى الآن، بذراعيها.

تقول: "حياتنا مدمرة جداً"

من المفترض أن القوات الأمريكية ستنسحب من العراق خلال السنتين القادمتين وسيكون هذا فصلاً جديداً في حياة "حرب"

وتضيف أمه: "العالم مخيف. إنهم أطفال".

مؤخراً لم يستطع "حرب" أن يلعب في الخارج مساءً.

قالت أمه: "كنا قلقين من الاختطاف. ولم يسمح له والده بالخروج".

لم يذهب "حرب" إلى ملعب ولم يقم مطلقاً بنزهة. كما لم يذهب أبدا إلى حديقة للتسلية.

تقول أمه: "كان دائماً يطلب الخروج. يقول لي أننا لم نر شيئاً في حياتنا. لماذا نبدو مثل السجناء في بيوتنا؟" اليوم تمر الذكرى السادسة للحرب. ولم تقم له حفلة عيد ميلاد أبداً.

عن صحيفة «مكلاشي»

عودة أصحاب محال الحيوانات الأليفة في بغداد إلى مزاولة أعمالهم

ترجمة: انتخاب عبد محمد

يكتظ سوق الغزل الشهير بالناس كل جمعة بعد الهدوء النسبي وارتفاع الرواتب الذي جعل من إقبال الناس على شراء الحيوانات الأليفة كبيرا ،انه لشيء غريب ولكنه أفضل من أشياء أخرى.

شاهدنا هناك الطاووس الأخضر الطويل رافعاً ريشه عالياً موضوعاً في مكان عال محاطاً بحاجز قوي، يثير الأولاد الجلبة حولَ قفص الكلاب الألمانية، التي تنبح بعنف وتبدي أسنانها القوية . ،والثعابين الخضر والصفر المطوقة أعناق أصحابها أثناء مساومتهم الزبائن .يتمشى الأبناء مع آبائهم حاملين الأقفاص الخشبية التي تحتوي على الديكة والببغاوات .

إن تجارة الحيوانات الأليفة كانت تجارة غير مزدهرة في السنوات الأخيرة من الحكم الماضي بسبب العقوبات الدولية الاقتصادية وانكماش الطبقة الوسطى .

يتم شراء الحيوانات الغريبة جدا بصورة عامة من قبل العوائل الغنية التي تستطيع امتلاك الحيوانات الثمينة مثل القرود والقطط المتماثلة .والسبب الآخر وراء عدم الازدهار هو الاختراق الأمني الذي حصل في السنوات الأخيرة : سوق الغزل الذي يقع على جادة شارع عريض في قلب مدينة بغداد الذي تعرض إلى هجومين منذ ٢٠٠٧ .

لكن الآن ،ومع توقف إراقة الدماء وازدياد رواتب المواطنين فان العوائل العراقية مستمتعة بشراء وسائل الترفيه والأشياء التي كانت غير متوفرة أيام الحصار خاصة بعد استتباب الأمن والحرية في البلاد .

حتى الكلاب وعلى الرغم من كونها حيوانات غير نظيفة طبقا للشرع الإسلامي فإنها الآن أصبحت شائعة .

إن أفضل وقت لشراء الحيوانات الأليفة هو يوم الجمعة، عندما يضع الباعة أقفاص الكلاب و القطط والطيور المغردة لعرضها للبيع .

تم فتح أسواق بيع الحيوانات في السنوات الأخيرة التي كانت مغلقة بسبب العنف حيث كان يتم بيع الحيوانات الأليفة بعيدا في الأزقة ، الاحتياطات الأمنية الآن عالية وقد تضمنت وضع الحواجز الكونكريتية ضد الانفجارات وكذلك التفتيش من قبل الشرطة لكل مواطن يدخل إلى السوق .

كانت لنا وقفة مع صاحب محل اسماك الزينة قاسم أميري الذي كان ينظر إلى أحواض الأسماك الملونة –التي تحمل مسميات مثل رأس الأسد، الكوب الأحمر ووجه الطفل.

في الأشهر الستة الأخيرة ازدهرت أعمال قاسم بسبب إقبال الناس من محافظات العراق إلى سوق الغزل.فمثلا معظم الناس يدفع ٢٠٠$ ثمنا لسمكتين اثنين فقط !

كان أبو غزوان يجلس على الحافة يراقب الطاووسين اللذين يملكهما .أشار أبو غزوان إلى الطاووس الذكر ذي الريش الزمردي المتألق وأشار أيضا إلى الأنثى التي كانت أبهت لونا من الذكر وشرح استعداد الأنثى والذكر إلى التزاوج .يرغب الناس أصحاب المزارع والحدائق الكبيرة إلى شراء هكذا طيور ،وقال انه يبيع زوجين أو ثلاثة خلال الأسبوع الواحد .يبلغ سعر الزوج الواحد ٨٠٠$.

تبجح بائع الحيوانات لؤي محمد بأن السوق هذه الأيام مهووس بالقطط المتماثلة التي تبلغ أسعارها بين ١٠٠$ إلى ١،٦٠٠ $ ، " يدفع الناس أسعارا مرتفعة للحصول على القطط الأليفة لأنهم يرغبون بالأشياء اللطيفة " أضاف محمد : "إن سلوك القطط الأليفة هذه يختلف عن سلوك قطط الشوارع ،لأنها أنظف ،إنهم لا يتغوطون داخل البيت "من ثم صحح كلامه قائلا "فقط القطط المدربة تعرف كيف تتغوط خارج البيت ".

و تطرق أيضا إلى الكلاب ذوات النهاية العالية مثل بكنكيزو داجشاند او سوساجز كما يطلق عليها العراقيين التي ارتفعت أسعارها إلى ٦٠٠$، "عندما يرى الناس حيوانات جديدة فأنهم يشترونها مهما كانت أسعارها مرتفعة " أدرك محمد أنه شي لا يصدق من أن الناس قبل الحرب كانوا يعرضون فقط الحمام للبيع لكن الآن يريد الناس كل شيء ونحن بدورنا نستطيع جلبه لهم .لا شي مستحيل الآن باستطاعتنا جلب حتى الأسود ،التماسيح أي شيء "

وصفي عبد ياسين البالغ من العمر ٥٢ عاما الذي كان يبيع الحيوانات قبل عقود بدا مندهشاً من التطور الاقتصادي الحاصل "لقد هربت من القطط " أنا لا استغرب من دفع معظم الأشخاص ٢٠٠ او ٣٠٠$ ثمنا لقطة لان الله أعطاه المال فلماذا لا يستطيع شراء قطة بسعر كهذا "..

عن الاندبندنت

سياحة غير مثالية في العراق

ترجمة: جمال جمعة

فندق الشيراتون في بغداد يشهد الآن أياماً أفضل بفضل بدء قدوم السياح، لكنه ما زال مفتوحا لرجال الأعمال.

خمسة سياح، بريطانيين، و أمريكيين وكندي واحد قضوا في الشيراتون ليلتين بعد نهاية لجولة سياحية في العراق شملت المواقع التاريخية إضافة الى المدن التي ما زال من الممكن حدوث العنف فيها.

مجموعة السياح هذه التي كان من الممكن أن يكونوا طاقم فلم لرواية أجاثا كريستي البوليسية (مغامرة في بلاد ما بين النهرين)، تتألف من: موظف مدني، رجل أعمال، مدير مكتب بريد متقاعد، ضابطة مراقبة سابقة أمريكية ، إضافة الى عالمة آثار من لندن.

بدأت رحلتهم عبر البلاد انطلاقاً من أربيل في الشمال الى البصرة جنوباً عارجين في طريقهم على بابل ولكش وموقع أور الأثري ثم قاموا بزيارة طاق كسرى في المدائن إضافة الى المدن المقدسة النجف وكربلاء.

وفي يومهم الأخير انطلقوا لمشاهدة الموقع الذي أقيم فيه قوس النصر في عهد صدام ، والذي برغم أنه لا يبعد سوى كيلومتر واحد فقط عن الفندق الذي يقيمون فيه فقد استغرقت مدة وصولهم اليه زهاء الساعتين بسبب تأخيرهم أثناء التفاوض مع رجال الأمن على حواجز السيطرات.

كرم الضيافة

وفي يوم آخر، على الطريق بين الناصرية والنجف، قضوا نحو ست ساعات في إحدى نقاط التفتيش.

لكنهم جميعاً، عندما تحدثت معهم حول ذلك، متفقين على الأمر يستحق العناء، وذلك بسبب أهمية الأماكن التي زاروها إضافة إلى كرم الضيافة الذي لمسوه من قبل العراقيين في أي مكان ذهبوا إليه.

لا أحد من هذه المجموعة يبدو عليه أنه شديد القلق فيما يخص قضية الأمن على ما يبدو.

"لم يخطر في بالي أن أفكر أن في الأمر خطورة"، تقول لنا الآثارية القادمة من شمال لندن، بريجيت جونز، ذات السبعة والسبعين عاماً.

"أنا متفائلة، وأعتقد أنه لن يحصل لي شيء".

وبرغم إنها أقرّت بسماعها "بضعة إنفجارت" إلا أنها أضافت فيما بعد بأنها تفضل الموت بانفجار سيارة مفخخة على أن تموت على سرير في جناح الشيخوخة بالمستشفى.

الضابطة المتقاعدة جو جيلبرت، وهي من الولايات المتحدة، تقرّ بوجود احتمالات تعرضهم للخطف أو القتل. لكنها، وبضحكة عصبية، تقول أنها على استعداد لمواجهة مثل هذا الخطر.

جيف مور، المدير البريدي المتقاعد القادم من أورتربون في شمال انجلترا، كان يصغي لتعليقات زملائه في الرحلة وهم يتذمرون من قذارة المراحيض وانعدام وجود المياه الساخنة في الفنادق، قبل أن يعقب على كلامهم بهدوء قائلاً "إنه لأمر مدهش تماماً أن نكون هنا، أعني أن نصل الى هنا، هيا! على المرء أن يتحمل للوصول الى هذا المكان، اليس كذلك؟".

التحرك بتستر

تينا تاونسيند غريفيس، وهي موظفة مدنية من مقاطعة يوركشاير البريطانية، اشترت زوجين من التذكارات من رجل يقبع في خيمة مغبرة تحت نصب السيفين المتقاطعين المقام في الميدان الذي كان يقيم فيه صدام استعراضاته العسكرية.

كان التذكاران عبارة عن قبعتي بيسبول مكتوب عليهما "العراق" ومجسم لأسد بابل يضيء حينما تضغط على زر فيه.

"بالتأكيد فإن أصدقائي يعتقدونني مجنونة قليلاً، لكنني أميل الى قضاء العطلة في أماكن مثل أفغانستان، وأعتقد أن عليهم أن يعتادوا على ذلك"، قالت ذلك وهي تقلب شعرها الأشقر الطويل الى الخلف مبتسمة.

شركة السياحة البريطانية هنترلاند طلبت من السلطات العراقية توفير حارسين أمنين إثنين لحماية فريق السياح لكن السلطات أخبرتهم بأنهم يحتاجون لفريق حراسة يتألف من ٢٥ عنصراً وعليهم تحمل تكاليف السكن والطعام لهم، لذا فإن المدير الإداري العام للشركة السياحية فضل أن تتم الجولة بستتر بدلا من جذب الانظار إليهم برفقة الحراس المسلحين. وهو الان مع فريقه أعضاء السياحي في طريقهم الى الوطن بأمان بعد أن قضوا ١٧ يوماً غنية في العراق.

وزارة السياحة في العراق تأمل أن يستعيد العراق سمعته السياحية بعد القضاء على الإرهاب، كما فعلت إيرلندا الشمالية، ليعود إسمه الذي يعرف به في عالم السياحة "ميزوبوتاميا"، بلاد ما بين النهرين، من جديد.

عن بي بي سي

جولة في ذاكرة العراق عبر القطار

ترجمة: علاء خالد غزالة

العاصفة الرملية تجعل بغداد الحزينة أكثر حزنا على الدوام. تتحول الشمس الى قمر في سماء رمادية في حالة حداد. يتوقف الزمن حينما يذوب الفجر في يوم غائم يشعرك وكأنه الغروب. تجلب هذه العواصف، التي اصبحت شائعة هذه الايام، حبات الحصى الناعمة التي تستقر على كل شيء، حتى على حاجبي الجندي باسم كاظم الخالدين من التعابير.

انحنى نحو السيارة التي تمر بنقطة التفتيش عند مدخل محطة بغداد المركزية للقطارات، حيث كان يقوم بواجبه. تقلصت عيناه وهو يحشر رأسه ليتعرف على الموجودين في السيارة.

عزف جهاز التسجيل الصوتي في السيارة اغنية لام كلثوم، المطربة المصرية الشهيرة من جيل سابق، من شريط مخدوش. كانت اغنية "سيرة الحب"، حيث علا صوتها المنقطع النظير صوت الكمان الحزين.

قال كاظم للسائق: "دعني استمع لدقيقة، ثم سادعك تمر."

استمع الى ام كلثوم تصدح: "من همسة حب لقيتني بحب. بحب وادوب في الحب. ليل ونهار على بابك." ثم سمح للسيارة بالمرور.

دب نشاط جديد في محطة قطارات بغداد فيما بعد نقطة السيطرة، وقد عادت للحياة بعد سبات طويل. ولكنها تستعيد الى الذاكرة عالماً ضائعاً، مثلما تفعل تلك المطربة الاسطورة. تقف منارتي الساعة، مثل برجي حراسة، على جانبي القبة التركوازية التي بنيت قبل نصف قرن. تعلن بطاقات رثة عن رحلات لم تعد موجودة: الى الموصل والى حصيبة وعبر الحدود الى سوريا وتركيا. ترسل الثريات السقفية ومضات من الضوء تتوهج تحتها علامات التميز بين درجة المنام والدرجة السياحية التي لم يعد لها اهمية.

والمحطة باكملها ليست الا بوابة تؤدي الى القطار المتوقف عند طرفها.

المرور من خلال المحطة هو مرور من خلال عراق آخر، ابعد ما يكون عن تلك البلاد هذه الايام، حين كانت ذات مرة عنيدة للغاية وان كانت غير واثقة. هذا الـ(عراق) تملؤه ذكريات، هي في بعض الاحيان محض خيال، عن ماض خلا من سفك الدماء. انها امة حيث تذكّر الاسماء بالمكان، لا بجريمة المحتل وتماديه، في ابو غريب وحديثة وحتى في بغداد. انها البلاد التي تتفتح بين نهرين امتلئا على طولهما بحدود غير دقيقة للتقسيمات العرقية والطائفية، التي فُصلت حتى في اصغر المدن بجدران كونكريتية كئيبة، او بتداعيات المذابح الجماعية العالقة في الذاكرة.

قال احمد مراد، وهو يستقبل عربة القطار: "في القطار، توجه الى الامام مباشرة."

صفر البوق في الساعة ٦:٢٥ مساءا، ورمى العمال والطلاب، وهم الابناء الطيبون العائدون الى بيوتهم، والمهنئون والمعزون، ستراتهم وحقائب الكتف المنتفخة وحقائب الطعام وقطع السجاد الملفوفة بحزم على الرفوف العلوية. استلقوا على المقاعد الجلدية الخضراء المهترأة، يتهامسون كما لو كانوا متفرجين يتحدثون قبل بدء مسرحية.

ليس للقطار رقم، فهناك قطار واحد فقط ينطلق كل ليلة الى البصرة الواقعة على بعد ٥٤٠ كيلومترا الى الجنوب.

صفر البوق ثانية عند الساعة ٦:٣٠. جرت عربات القطار الست نفسها متثاقلة، ثم ارتطمت بعضها مع بعض، بينما كان القطار يغادر في موعده. تهاوت صرخات عجلات القطار، وصنوج المعدن القادم من عالم آخر، والمكان الموحش دائما، في صحوة القطار.

سأل احدهم بتثاقل: "هل وصلنا الدورة؟"

وتعجب الاخر: "هل هي الكاظمية؟"

تسربت الريح الى عربة القطار بينما كان يستجمع سرعته. تلاشت الاعلام الملونة الدينية عن الانظار. كما تلاشت نقاط التفتيش المحاطة بالزهور البلاستيكية التي جللتها العواصف الترابية بالغبار. نفخ القطار بوقه بينما كان يمر بمشاهد مشوشة لصفوف ملتوية من السيارات تنتظر دورها في التفتيش في نقاط السيطرة، ونفخ ثانية حينما مرّ بسيارات للشرطة وقد ومضت مصابيح الانذار فيها، وثالثة حينما مرّ بجدران كونكريتية التي عُلقت عليها ملصقات الانتخابات الممزقة. امكن للحظة تميز وجوه الجنود الواقفين امام صف من المصابيح الامامية للسيارات ، قبل ان تغرمها ظلمة الليل مجددا.

ربما تكون تلك هي المرة الاولى منذ الغزو الذي قادته الولايات المتحدة عام ٢٠٠٣ التي تتوقف فيها قافلة سيارات اميركية على الطريق في بغداد. فقد توقفت وهي في طريقها الى المطار بانتظار مرور القطار.

وفي الساعة ٦:٤٥ وصل القطار الى سرعته القصوى، وحينها اشعل عقيل موسى سيجارته، وهو يراقب مشهد البيوت المتربعة تحت اشجار النخيل هنا وهناك، غير مكترثة بالزمن.

قال، وقد جالت الافكار في خاطره: "ليس هناك سُنة هنا، وليس هناك من شيعة. نحن كلانا اجزاء من يد واحدة. اتعرف الى شخص ما فقط من خلال المناقشة التي نخوضها."

يُعد خط السكة الحديد هذا، من الناحية الروحية ان لم يكن من الناحية الواقعية، جزءً من خط اقدم، وشرق اوسط اقدم، وهو نتاج رؤية الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر وحلفاؤها الالمان لبناء خط سكة حديد برلين–بغداد الذي ينتهي اخير في البصرة، ويجري بحرية عبر الامتدادات التركية غير المفصولة بحدود، في سوريا والعراق.

وقد بدأت خدمة القطارات مجددا في شهر كانون الاول، باقل قدر من التطبيل والتهليل. وقد كانت رحلة القطار على مدى ثمانية عشر شهرا قبل ذلك من الخطورة بمكان، لانه يمر بالمناطق المتمردة التي تتخفى بين اشجار الكالبتوز والنخيل وبين القرى الصفراء الواقعة في المنطقة التي عرفت باسم مثلث الموت. حينها صوب القناصون بنادقهم عشوائيا على القطار. وقد وقع مدير عام السكك الحديدية في كمين واصيب بطلقات نارية في كلتا رجليه عام ٢٠٠٤. كما تعرض الجسر قرب اللطيفية، الكائنة في قلب مثلث الموت، الى التفجير المرة تلو الاخرى.

اما اليوم، فالقطار ممتلىء بالمسافرين، حيث تبلغ اجرة التذكرة مبلغ سبعة دولارات فقط، او خمس تكلفة سيارة الاجرة. وحينما مرّ القطار باللطيفية، لم يتوجس احد من خطر كامن.

قال هلال كريم، الذي يسافر من اجل عمل في البصرة: "الدليل (على الامن) اني اجلس هنا الان."

عُلقت الستائر القذرة في العربة رقم ٤٩٩ على نافذة ذات شقوق. نوابض المقعد رقم ٢٣ كانت مكسورة. القليل من المصابيح الرأسية في العربة كانت تعمل، اجتذب احدها حشرات طائرة لترقص حول السقف، بلا كلل ولا ملل. اما الجدران البنية فقد اضافت حصتها الى المشهد الكئيب.

هتف احد المسافرين من مؤخرة العربة، وقد اجتمع اثنان من اصابعه حول سيجارة: "يا محمد، اترك الباب مفتوحا، حتى يمكن للدخان ان يخرج."

ثم سرعان ما التقى عقب سيجارته مع بذور (حب) عباد الشمس الملقاة على الارضية.

صاح على احد الشباب الجالس امامه، وقد كان يحاول بلا جدوى ان يحشر عودا من البخور المشتعل في موضع لبرغي مفقود: "ماذا تفعل؟ هل تريد ان تحرق القطار؟"

تساءل مسافر آخر: "هل هذه هي اللطيفية؟"

اجابه صديقه مخمنا: "انها المحمودية؟"

عزفت اجهزة الهاتف النقال اغنيات منوعة. كان من بينها اغنيات لمطربين عراقيين مثل ياس خضر. وقام احدهم بعزف نشيد عسكري من وقت صدام على سبيل المزاح. ثم ادت مطربة سورية (...) اسمها (اصالة) اغنية اخرى لام كلثوم. "اخاف منك، واخاف تنساني. لكن البعد عنك صحاني، غلبني الشوق."

كانت كلمات الاغنية بالكاد مسموعة بالنسبة الى ولاء حسين الذي يقف عند باب القطار.

تطوع بالكلام، وهو يرتشف شايا ساخنا: "لقد سئمت من هذه الحياة."

جاء حسين، الشاب البالغ ثمانية عشر عاما من العمر وهو متزوج وأب لصبي اسمه علي وعمره تسعة اشهر، جاء الى بغداد للعمل. لقد كانت تلك هي رحلته الخامسة على القطار. وقد نام في الشارع في الليلة الماضية، على أمل ان يكون من بين الاوائل في صف الانتظار للتقديم على سلك الشرطة. ولكن لم يكن لذلك اهمية.

قال: "ليس هناك من مستقبل، اقسم بالله." القى ما تبقى من الشاي في كوبه عبر الباب ثم وقف على رجليه، وقال: "ليس لدي حتى عشاءً واحدا اقدمه الى طفلي."

دفع ذراعه المفتولة نحو باب الخروج ورسم ابتسامة مضيافة. تطلع بوجه تعلوه نظرة الوداع الى خارج القطار حيث تعيش حيوات اخرى. حياته بالكاد بدأت.

قال: "حينما اقف هنا، اريد ان اخرج كل الأسى من قلبي وارميه خارج هذا الباب."

ابتسم ثانية، بصرامة، وقال: "انه لمن الجيد ان يتحدث المرء."

تباطأ القطار. تساءل احدهم: "هل نحن في المسيب؟"

على مبعدة عدة صفوف من الكراسي الى الامام، كانت هناك اغنية تُعزف. الاغنية اسمها "هذا العراق"، وينشدها تيسير الصفار. تقول الاغنية: "سوف نضيء طرقاتك بالشموع. سوف نجفف دموع عينيك."

ينتظر تاريخ الحروب الداخلية التي وقعت بالعراق في عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ ان يُكتب. انها تفتقر حتى الى الاسم. يُطلق عليها في بعض الاحيان تسمية "الفترة الطائفية" او "الحرب الطائفية." وفي احيان اخرى تُعرف باسم "الاحداث." غير انه عادة ما تكفي الاشارة الى كلمة واحدة: "الطائفية."

اصبحت نقاط السيطرة الموزعة بكثرة في الشوارع العراقية، احيانا في كل ١٠٠ متر او نحوها، ميراث هذه الحرب. في بلد يكتظ بالجدران والموانع والسواتر والاسلاك الشائكة، تجد الكثيرين كارهين لها. يجري التفتيش في نقاط السيطرة اعتباطيا، حيث يكون الجنود احيانا فظين، بينما قد يدوم التأخير فيها لساعات، يتمثل باشرطة من السيارات المصطفة بتراخٍ على مسافة كيلومترات عدة.

قال علي زيد، الطالب الذي يبلغ عشرين عاما من العمر وقد كان يقوم بزيارة في بغداد: "يزعجك دائما ان ترى القوافل العسكرية الامريكية توقفنا وتمنعنا من التحرك في بلدنا."

اضاف ابن عمه عبد الله حامد: "والان انتقل عدوى هذا المرض من الاميركيين الى العراقيين. انه مثل فايروس ينتشر في حاسوبك. لا يمكنك محوه."

حامد هو شخص كثير الحديث وضخم الجسم. وهو يدرس الحاسوب، لكنه يقول ان ولعه الحقيقي هو في الشعر، سواء كانت اعمال امرؤ القيس، قبل فجر الاسلام، ام الشاعر نزار قباني، المتوفى في عام ١٩٩٨. البيت الشعري المفضل لديه، متأثرا بالطائفية، هو: "دموع بغداد، ملايين الدموع. من لدي في بغداد، تبكي علي، وابكي عليها؟"

قال ان هناك شعراً يتلى في القطار. انها الثقافة المكتسبة في الرحلة.

واضاف، وقد مال رأسه الى النافذة التي يعلوها الغبار: "سوف تكوّن فكرة عن البلاد اذا استطعت ان تتجول خلالها بحرية. اريد ان انتقل من مكان الى مكان. اذا لم يكن لي ان اعرف العالم، فبامكاني في الاقل ان اتعرف الي بلدي."

عُزفت المزيد من الاغاني، كان احدها نشيدا للقطار.

صدح صوت ياس خضر، من سماعة خافتة: "راح ابقى على السكة، اعد المحطات للبصرة. وصلوا تل اللحم، لو عبروا؟"

بينما اقترب منتصف الليل، هوى المزيد من المسافرين الى النوم، ما عدا مجموعة من المشاغبين في الصف رقم ٢٩. ومع حلول الساعة الثانية بعد منتصف الليل، سكن حتى هؤلاء الى الهدوء. لكن المسافرين تنحنحوا في مكانهم كلما ابطأ القطار.

سأل احدهم: "اين نحن الان؟"

وتساءل الاخر: "في أي مدينة نحن الان؟ في السماوة ام في سوق الشيوخ."

بينما اقترب القطار من البصرة بدأت السماء تصطبغ باللون الرمادي. ولاح عن بعد لهيب الغاز الذي يُحرق من آبار النفط، مثل مشاعل في الافق. عادت البيارق الدينية الى الظهور مجددا، كذلك عادت الكتابات والرسومات العشوائية السوداء على الجدران. كما عادت نقاط السيطرة، مع حدودها المرسومة.

توالت اصوات قرعات من القطار بينما كان يعبر قناة قذرة مليئة بالازبال في مدينة كانت تُعد الاجمل بين مدن العراق.

توقف القطار في الساعة ٥:٥٨ صباحا. كُتب على لافتة معلقة على جدار المحطة، قرب شباك التذاكر الذي يقدم (حجز درجة اولى): "محطة البصرة ترحب بكم." "لقد وصل القطار دقيقتين قبل الموعد.

عن الواشنطن بوست